

المجاعات والأوبئة بالمغرب الأوسط بين علاج الأطباء وكرامات الأولياء ما بين القرنين (6 و10 هـ / 12 و16 م) _ قراءة في ذهنية المريض _

Famine and Epidemics in the Central Maghreb: Between Medical Treatment and the Miracles of Saints (6th–10th AH / 12th–16th CE)
A Reading of the Patient's Mentality



د. الحاج زكراوي *

جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر-2
elhadj.zekraoui@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2026/02/07 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



الملخص:

عرف المغرب الأوسط بين القرنين (6-10 هـ / 12-16 م) أزومات متكررة تمثلت في المجاعات والأوبئة، من أبرزها مجاعة بجاية سنة 588 هـ / 1192 م التي أعقبها وباء شديد، ومجاعة تلمسان سنة 688 هـ / 1386 م، وغيرها، نتيجة عوامل طبيعية وبشرية متداخلة. وقد سعى المريض إلى حفظ سلامته الصحية عبر مفاضلة علاجية بين الاعتماد على الأطباء وأدويتهم ونصائحهم الوقائية، وبين اللجوء إلى الأولياء والتبرك بكراماتهم، مثل محمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق (ت 681 هـ / 1282 م) وحسن أبركان التلمساني (ت 807 هـ / 1404 م)، بالاعتماد على ممارسات كالتفل والرقي والدعاء. ويهدف هذا البحث إلى رصد أبرز تلك المجاعات والأوبئة، وبيان أسبابها، وتحليل طرق مواجهتها لدى المريض (المبتلى) بين اعتماده على الطب أو لجوئه للأولياء والصالحين معتقدا في كراماتهم؛ قراءة في ذهنية المريض.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط؛ المجاعات؛ الأوبئة؛ الطبيب؛ كرامة الأولياء، المريض.

Abstract:

The Central Maghreb experienced recurrent crises between the 6th and 10th centuries AH (12th–16th centuries CE), notably famines and epidemics, such as the famine of Béjaïa in 588 AH/1192 CE, which was followed by a severe epidemic, and the famine of Tlemcen in 688 AH/1386 CE, among others. These crises resulted from a combination of natural and human factors. In response, afflicted individuals sought various therapeutic means to preserve their health, oscillating between reliance on physicians, their medicines, and preventive and curative advice, and recourse to saints through seeking blessings from figures such as Muḥammad b. Abī Bakr Marzūq (d. 681 AH/1282 CE) and Hasan Abarqān al-Tilimsānī (d. 807 AH/1404 CE), relying on their miracles and healing practices such as spittle, incantations, and supplication.

This study examines major famines and epidemics in the Central Maghreb, explores their causes, and analyzes how patients responded—either by relying on medical treatment or seeking the blessings of saints, believing in their miracles—offering insight into the patients’ mentality.

key words: Central Maghreb; Famines; Epidemics; Physician; Miracles of Saints; Patient

مقدمة:

على الرغم مما أُلّف وكتب حول المغرب الأوسط في العصر الوسيط في مجالات شتى ومناحي متعددة، إلا أنه لا يزال بحاجة ماسة إلى دراسات معمّقة في جميع مجالات الحياة، خاصةً تلك الأحداث التي تتكرّر في كلّ العصور، ومنها ما نعيشه في وقتنا الراهن، ولعلّ من أبرز ما شدّنا من المواضيع هو المجاعة والأوبئة، لارتباطه بجميع المجالات؛ السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، وكذلك العقائدي، وتمّ ضبط عنوان هذا الموضوع بـ "المجاعات والأوبئة بالمغرب الأوسط بين علاج الأطباء وكرامات الأولياء ما بين القرنين (6 و10 هـ/12 و16 م) _ قراءة في ذهنية المريض _".

وأهمية هذا الموضوع تكمن في إبراز أهمّ المجاعات والأوبئة التي عصفت بالمغرب الأوسط، وتبيان العوامل المؤدّية إلى ذلك، ثمّ إبراز دور كلّ من الطبيب والوليّ الصالح في دفعها أو التخفيف منها، لتكون إشكالية هذا البحث كالتالي: "ما أبرز المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب الأوسط في الفترة ما بين القرنين (6-10 هـ/12-16 م)؟ وما هي أسبابها؟، وما مدى تأثير الجوع والوباء في ذهنية وسلوكيات أفراد المجتمع؟، وما هو دور هذه الأزمات في تبيان حالة الطبّ ونشاط ظاهرة الولاية بالمغرب الأوسط؟

أولاً: مفاهيم عامّة (المجاعة، الأوبئة، المغرب الأوسط)

يمكن أن نوضّحها في عدّة جزئيات كالتالي:

1_ تعريف المجاعة:

تعرّف المجاعة على أنّها قلّة توفّر المواد الغذائية التي تُلبّي احتياجات النّاس أو انعدامها، وتعدّ من أقسى وأشدّ المشكلات التي تواجه المجتمع، فهي ظاهرة اقتصادية واجتماعية عارضة شهدها مختلف الدّول والحضارات على مرّ الأزمان⁽¹⁾.

يقول ابن منظور: "جوع: الجُوع: اسمٌ للمَحَمَصَةِ، وَهُوَ نَقِيضُ الشَّبَعِ، وَالْفِعْلُ، جَاعَ يَجُوعُ جَوْعاً وَجُوعَةً وَمَجَاعَةً، فَهُوَ جَائِعٌ وَجَوْعَانٌ، وَالْمَرْأَةُ، جَوْعَى، وَالْجُمُعُ، جَوْعَى وَجِياعٌ وَجُوعٌ وَجَبِعٌ"، والمجاعة والمجوعة والمجوعة، بِسَكِينِ الْجَيْمِ: عامُ الجُوعِ⁽²⁾، ومن الألفاظ التي تدلّ على المجاعة "المسغبة" □ أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ □⁽³⁾؛ أي: "مجاعة". وأسغَبَ الرجلُ، فَهُوَ مُسْغَبٌ، إِذَا دَخَلَ فِي الْمَجَاعَةِ، كَمَا تَقُولُ: "أَفْحَطَ الرَّجُلُ، إِذَا دَخَلَ فِي الْقَحْطِ". وَفِي الْحَدِيثِ: "مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ سَاعِباً؛ أَي: "جَائِعاً"، وَقِيلَ: "لَا يَكُونُ السَّغْبُ إِلَّا مَعَ التَّعَبِ"، وَيَتِيمٌ ذُو مَسْغَبَةٍ؛ أَي: "ذُو مَجَاعَةٍ"⁽⁴⁾، كما ذُكِرَ أَنَّ "الألبّة" هي، المجاعة⁽⁵⁾، وقد أُطلق على السّنة التي تحدّث فيها المجاعة تسميات عديدة؛ كالسّنة الغبراء، وسنة لزيّة؛ أي: "شديدة"، وهي السّنة التي يكون فيها القحط، واللّزوب: "القحط"، وكذلك السّنة الحمراء؛ أي: "السنة الشديدة الجذب"، والسنة

الشهباء ؛ إذا كانت بيضاء من الجذب، لا يُرى فيها الحُصْرَة، وقيل: "هي بيضاء لكثرة الثلج وعدم وجود النبات"، وقيل: "أنَّ شهباءً هي ريحٌ شديدة البرد"، ويقال للسنة الشديدة أيضاً "القَحْمَة"، وكذلك السنة السَّنْهَاء: "وهي السنة التي لا نبات ولا مطر"(6).

ومن مسببات المجاعة القحط أو الكحط⁽⁷⁾، بمعنى، احتباس المطر والجذب، ويعدّ القحط من أهم أنواع الجوائح، والجوائح في اللغة، جمع "جائحة"، وتعني "الشِّدَّةُ وَالنَّازِلَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي بَتَحَاتِ الْمَالُ مِنْ سَنَةٍ أَوْ فِتْنَةٍ"⁽⁸⁾، وهناك من عددها في ستة عشر نوعاً ونظّمهما في هذا الرجز قائلاً:

فَحُطٌّ وَتَلَجٌّ ثُمَّ عَيْثُ بَرْدُهَا رِيحٌ وَعَقْنٌ وَجَرَادٌ وَقَارُهَا
طَيْرٌ وَدُودٌ غَاصِبٌ ثُمَّ سَارِقٌ غَرِقٌ وَجَيْشٌ وَالْمَحَارِبُ نَارُهَا⁽⁹⁾

2_ الأوبئة:

يُعرّف الوباء في اللغة "وَبَاءٌ: الْوَبَاءُ: الطَّاعُونُ بِالْفَصْرِ وَالْمَدِّ وَالْهَمَزِ"، وقيل: "هُوَ كُلُّ مَرَضٍ عَامٍ". وَقَدْ وَبَيْتِ الْأَرْضُ تَوْباً وَبَاءً، وَوُبُوتٌ وَبَاءٌ وَوِبَاءَةٌ وَإِبَاءَةٌ عَلَى الْبَدَلِ، وَأَوْبَاتٌ إِبْيَاءٌ وَوُبَيْتٌ تَيْبَاءٌ وَبَاءٌ، وَأَرْضٌ وَبِيئَةٌ وَوَبِيئَةٌ وَمُؤْبِئَةٌ وَمُؤْبِئَةٌ، كَثِيرَةُ الْوَبَاءِ"، والاسم الوبئة، إِذَا كَثُرَ مَرَضُهَا. وَاسْتَوْبَأْتُ الْبَلَدَ الْمَاءَ⁽¹⁰⁾.

أما اصطلاحاً، فيُعرّف الوباء، على أنّه مرضٌ يصيب الكثير من الناس في منطقة معيّنة دون غيرها، ويكون على غير المعتاد من الأمراض، من حيث كثرة المصابين، مع اشتراكهم في نفس المرض على غير المعتاد، ويقال: "هي الأمراض الحادة الشديدة التغيّر القريبة البحران والأمراض المفاجئة التي تأخذ فجأةً وبعثّةً" وأطلق الوباء أيضاً على الطاعون والأمراض المدمرة التي تصيب الجسم والتي ليس لها شفاء" أو هو تغيّر الهواء إلى الفساد.

3_ المغرب الأوسط:

وهو الإقليم الذي يتوسّط المغرب الأدنى والأقصى "يشمل بلاد الجزائر ويمتدّ من تاهرت⁽¹¹⁾ حتّى وادي ملوية وجبال تازة غرباً، وكانت عاصمته مدينة تيهرت في عهد الدولة الرستميّة الخارجيّة الإباضيّة، ثمّ مدينة أشير⁽¹²⁾ عاصمته أيّام الدولة الزييريّة الصنهاجيّة التي امتدّ نفوذها إلى أقصى الجنوب الغربي، الجريد وغرّبي نَفْزَاوَة، وضمت منطقة تبسة وباغاي في سفح جبل أوراس⁽¹³⁾ ومجانة⁽¹⁴⁾، والمسيلة، وبلزمة، وأوراس الزّاب وسط بسكرة، وأشير، إلى غيرها من المناطق، ثمّ انتقلت العاصمة إلى مدينة تلمسان غرباً أيّام دولة بني عبد الواد، ويذكر صاحب الاستبصار أنّه في المغرب الأوسط مدن كثيرة وقاعدتها مدينة تلمسان، ويحدّ المغرب الأوسط من وادي جَمْع، فهو نصف الطريق بين مدينة مليانة، ومدينة تلمسان بلاد تازة، من بلاد المغرب في الطول وفي العرض من البحر الذي على ساحل بلاد الساحليّة إلى مدينة تنزل⁽¹⁵⁾.

ويحدّده المؤرّخ ابن خلدون بقوله: "أنّ بلاد المغرب الأوسط قاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرّوميّ بلد هنين ووهران والجزائر ... ثمّ يتّصل ببلاد الجزائر من شرقيّها بلاد بجاية في ساحل البحر، ثمّ قسطنطينيّة في الشّرق منها وفي آخر الجزء الأوّل وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبيّ هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير، ثمّ بلد المسيلة، ثمّ الزّاب، وقاعدته بسكرة، تحت جبل أوراس المتّصل بِدَرَن ... جبل أوراس وتبسة والأوبس وعلى ساحل البحر بلد بُونة"⁽¹⁶⁾.

ثانياً: أهمّ مجاعات وأوبئة المغرب الأوسط في الفترة ما بين القرنين (6-10 هـ/ 12-

16م)، نذكر الآتي:

1_ أسباب المجاعات:

يذكر المؤرّخ ابن خلدون أسباب المجاعات، ويرى أنّها تأتي عند ضعف الدّولة وذلك لقبض النّاس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب العدوان التي تُقيمه الدولة على الرعيّة في جباية الأموال أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهزم الدّولة، فيقلّ

احتكار الزّرع غالبًا، وليس صلاح الزّرع وثمرته بمستمّر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلّتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقلّ ويكثر والزّرع والثّمار والضّرع على نسبته، وإذا فقد الاحتكار عظم توفّع النّاس للمجاعات، فعلا الزّرع وعجز عنه أولو الحَصَاصَة، فهلكوا وكان بعض السّنّوات الاحتكار مفقودًا فشمل النّاس الجوع⁽¹⁷⁾، فتكون الأسباب عند ابن خلدون في نقطتين؛ الأولى أسباب بشرية تمثّلت في الجبايات والضرائب المفروضة من الدّولة ونتيجة للتدهور الحاصل في الوضع السياسي من حروبٍ وفتنٍ وغيرها، أمّا الثّانية فارتبطت بالعامل المناخي والأمور الطّبيعيّة التي تضّرّ بالزّرع والثّمار والضّرع⁽¹⁸⁾.

أ_ أسباب طّبيعيّة:

من الأمور الطّبيعيّة التي تؤدّي بالمجاعة الجفاف، ويشير هذا المصطلح إلى فترة من الزمن تكون فيه الظروف المناخيّة في منطقة ما أكثر جفافًا من المعتاد، نظرًا لتراجع معدّل هطول الأمطار بها.، ومن فترات الجفاف التي أمدّتنا بها المصادر أنّ بجاية في القرن (7هـ/13م) أصابها جفافٌ عظيم، وقلّت المياه، وجفّ فيها أمسيون ووصل الرّزق إلى أربعة دراهم⁽¹⁹⁾، وفي سنة (610هـ/1214م) كانت قد تعرّضت بجاية أيضًا إلى مجاعة كان سببها القحط⁽²⁰⁾، أمّا تلمسان فقد عانت قحطًا يبدو أنّه كان شديدًا حتّى قيل: أنّه لم تبق به علالة ولا تُبَصِّر للظّمثان بلالة⁽²¹⁾.

وكان لقلة الماء أثر كبير في بروز المجاعة بالمغرب، وذلك لما تُحدثه من هلاك، فعملت السّلطة على وضع بعض الحلول للتصدّي لفترات الجفاف التي تؤدّي إلى مجاعة، من ذلك ما قام به السلطان الزيّاني "أبو تشفين"، حيث قام بفتح أهراء الزّرع وإباحة بيعها للنّاس⁽²²⁾، أمّا عموم النّاس فيقومون بتخزين الطّعام حتّى لا يقعوا في أزمة المجاعة، كما كان للقضاة دورًا في أوقات المجاعات، حيث أجاز الفقهاء بيع بعض الأراضي المحبّسة على الفقراء، وصرف ثمنها عليهم زمن المسغبة خوفًا عليهم، من ذلك ما ورد

عند المؤرخ الونشريسي، حيث بيعت قاعة كانت لرجل غاب عن وطنه وصُرف ثمنها على ولده زمن الشدة والغلاء⁽²³⁾.

وقد تؤدّي الأعاصير والأمطار الغزيرة إلى إفساد الزرع وتضرّ بالحيوانات، كما حدث في قسنطينة سنة (758هـ/ 1356م)⁽²⁴⁾، وأيضاً ما حدث بتلمسان، حيث نزلت ثلجة عظيمة في القرن التاسع تعطلّت منها الأسواق وتهدّمت بها ديارٌ كثيرة⁽²⁵⁾، وكان قد عمّ المغرب الإسلامي ككل، بما فيه المغرب الأوسط ربح قويّة وإعصاراً أهلك زرع صائفاتها وحيوانها⁽²⁶⁾، فتسبّب في إتلاف الزرع والضرع معاً، خاصّة الرياح الجنوبيّة أو الصحراويّة "رياح السيّريكو"، وإذا كانت ذات أعاصير فيسبّب حدوثها في وقوع مجاعات شديدة مثل، المجاعة الواقعة في المغرب الأوسط سنة (776هـ/ 1374م) وعموم المغرب⁽²⁷⁾.

كما توجد أسبابٌ أخرى على غرار موجات الحرّ الشديد بمليانة سنة (725هـ/ 1324م)، وذلك لما ذكره الرحّالة ابن بطوطة، من أنّه لما وصل إليها وجد بها القيظ⁽²⁸⁾، كما أصاب المنطقة زلزال سنة (766هـ/ 1364م)، وهذه المشاكل الطبيعيّة تؤدّي إلى أضرار ماديّة وبشريّة، لكن لا يمكن أن تكون عاملاً مباشراً في المجاعة⁽²⁹⁾، وتعرّض المغرب الأوسط أيضاً إلى الجراد الذي اجتاح بلاد المغرب في الفترة ما بين (677 - 679هـ/ 1279 - 1281م)، حيث أكل جميع زروعها فلم يترك بها مُحَصَّراً⁽³⁰⁾، وهذا ممكن إذا ما علمنا حسب الإحصائيات الحديثة أنّ الجراد الواحد الصغيرة تأكل مقدار وزنها من النبات، فإذا كان وزنها يصل إلى جرامين، وإذا كانت جموع الجراد في بعض الأسراب تصل إلى 8 مليار جرادة، تنز مع بعضها حوالي 16000 طن، فإنّها تأكل في اليوم الواحد ما يطعم 2.4 مليون رجل⁽³¹⁾.

ب_ أسباب بشريّة:

عانى مجتمع المغرب الأوسط من التعسف الضريبي في نهاية الحكم الموحدى، ثم زمن الدولة الحفصية التي سيطرت على أجزاء كبيرة منه، وصارت تمكس فيه جُلّ المبيعات على المسلمين⁽³²⁾، وتضرب على القبائل المعارم الثقيلة⁽³³⁾؛ إذ فرضت الدولة الزيانية على التجار والباعة في الأسواق جملةً من المعارم؛ كالمغرم على الخطب، والبيض والدجاج، ووسائل المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، وإجحاف الضعيف بها أشد⁽³⁴⁾، كما تفرض ضرائب جديدة على الرعية من طرف السلطة عند حدوث حروب أو فتن من ذلك ما أشار إليه المؤرخ ابن خلدون عند الحديث عن استبداد الأمير "أبي سالم المريني" على الجزائر واستنثاره ببجايته لصالحه⁽³⁵⁾.

كما يذكر المؤرخ كذلك أنّ تلمسان في وقت من الأوقات كانت تدفع الجباية للدولة المرينية⁽³⁶⁾، كما عانى الفلاحون من هاته الإجراءات الضريبية المتعسفة، بغض النظر عن كثرتها أو قلتها، ومّا يزيد في ثقل هذا النظام الجبائي أنّه كان يسبق عمل الفلاح بدون مراعاة الجوائح المحتملة غير آبه إن كان حرّته سيسلم من أيّ جائحة محتملة⁽³⁷⁾ أو من تجاوزات السلطة حتّى اعتبر بعض الفقهاء تسلط السلطان الجائر على الزرع جائحة⁽³⁸⁾.

ومن مسببات المجاعة في فترة بحثنا هذا، الاضطراب السياسي ومجموع الحروب والفتن الداخلية التي لا حصر لها؛ من أمثلة ذلك ما حدث في بجاية والمغرب الأوسط ما بين سنتي (581 و 606 هـ/1186 و1210 م)، حيث حدث هجوم بنو غانية على بجاية ومناطق عديدة من المغرب الأوسط نتج عنه خراب عمراني لبعض المدن كتيهت، ووقوع مجاعة محلية ببجاية أعقبها وباء سنة (588 هـ/ 1192 م)⁽³⁹⁾، كما كان هناك حصار لبني غانية بقسنطينة سنة (588 هـ/ 1192 م)، وحصار لتلمسان سنة (605 هـ/ 1208 م) نتيجة قطع الماء عنهما وتخريب العمران ونهب الزروع⁽⁴⁰⁾، كذلك ثوره أبو علي الملياني وخروجه على الحفصيين، وتشديد الحصار على مدينة مليانة (

659هـ/1260)⁽⁴¹⁾، وضرب السلطان أبو يعقوب الحصار على مدينة تلمسان سنة (698هـ/1300م)، واستمرّ الحصار قرابة ثمانية سنين وثلاثة أشهر، مخلفاً عدداً من الموتى، من أهل تلمسان قتلاً وجوعاً⁽⁴²⁾.

وعلى العموم، فإنّ الباحث في الحروب والفتن ببلاد المغرب الأوسط يمكن الاستناد لتاريخ ابن خلدون الذي أرنّ للعديد منها، كما أنّ الباحث في هذا الموضوع يستطيع أن يرجع إلى مؤلّف الباحثة "مزدور سميّة" حول المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط؛ جمعت فيه أهمّ الحروب والفتن محيلة إلى أهمّ المصادر التاريخية التي ذكرت هذه الأحداث⁽⁴³⁾، وهذا يفضي بنا إلى ملاحظة أنّ تلك الفتن والحروب والاضطرابات السياسية كانت تؤثر وتضيق على السكان محدثةً المجاعات وغلاءً في الأسعار بالحصار أو بقطع عنصر الماء أو بشلّ الحركة التجارية داخل المدينة وخارجها، وبالوقوف أمام القوافل بعمليات السلب والنهب التي تشمل المزروعات والأنعام، وأخذ الجباية من السكان قسراً.

2_ أسباب الأوبئة:

من أهمّ مسببات الأوبئة والأمراض والطّواعين منها، ما هو مرتبطٌ بالمناخ كفساد الهواء والماء، ومنها ما ارتبط بالمناخ والتغيّرات التي تلحقه، ومنها ما ينتج عن المجاعات والحروب ومنها، ما هو رُوحيّ، ويذكر المؤرّخ ابن خلدون، أنّ وقوع الوباء سببه في الغالب فساد الهواء، لكثرة العمران وما يخالطه من العفن والرطبات الفاسدة فإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني، وملابسه دائماً فيصل الفساد إلى مزاجه وإذا كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصه بالرئة، وإنّ كان الفساد دون القويّ فيكثر العفن ويتضاعف وتكثر الحُميات في الأمزجة وتقرض بذلك الأبدان وتهلك، ولهذا فمن الحكمة أن تخلّل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء⁽⁴⁴⁾، ومما ذكرته بعض كتب المصادر، أنّ النظافة في فترات كانت منعدمة في

تلمسان، حيث عَجَّت الطرقات بالأزبال وحيِف الحيوانات وطين المطر كان مجتمعا في الشوارع⁽⁴⁵⁾.

أما بالنسبة لتلوث الماء ودوره في إحداث الأوبئة، فقد ذُكر أنّ مدينتي "تنس"، و"مرسى الحَرز" مياهما غير صالحة للشرب، يقول المؤرخ البكري: "وبإزاء مدينة مرسى الحَرز بئر وبيّة الماء تُعرف ببئر أزراق، يقول أهلها: طعنة بمزراق خير من شربة من بئر أزراق"، وذُكر أنّ هذه المدينة كثيرة الحيات، فاسدة الهواء⁽⁴⁶⁾، كما تحدث الأوبئة أيضاً نتيجة ظهور المجاعات وغلاء الأسعار، فمما ذُكر أنّ المجاعة التي كانت ببجاية سنه (588هـ/ 1192م) أعقبها وباء شديد، ولا شك أنّ أوقات المجاعة تفرض على الناس نمطاً غذائياً جديداً، يكون غير خاضع لشروط الصحة؛ كي يسدّوا رمقهم من الجوع، فيأكلوا الحبوب الفاسدة واللحوم الرديئة كالجيفة ولحوم الكلاب وأكل النباتات البرية وما يتناولون من الأغذية ما لم يعتادوا عليه⁽⁴⁷⁾.

وفيما يخصّ سكان الأماكن الأكثر عرضة للأوبئة هم، أهل الأمصار فهم ساكنون لا يمارسون الرياضة، فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار على العكس من أهل البوادي لما يراه المؤرخ ابن خلدون لتنوّع أغذيتهم وصّلاح أهويّتهم ولممارستهم رياضات عديدة كركوب الخيل والصيّد وطلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسّن بذلك الهضم، ويفقد إدخال الطّعام على الطّعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض وتقلّ حاجتهم إلى الطب⁽⁴⁸⁾.

3_ نماذج من مجاعات وأوبئة المغرب الأوسط:

أ_ نماذج من المجاعات بالمغرب الأوسط:

تعدّ مجاعة (588هـ/ 1192م) ببجاية من أكبر المجاعات التي حدثت في بلاد المغرب الأوسط وأشدها، فمما ذكره المؤرخ ابن عذاري أنّه: "لما وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها وخفّ قطينها وعمّارها، وانتهبت زروعها وغلاتها، وقلّت خيراتها وعُدِمَت

مرافقها وأقواتها، وألَمَّ بالرعيّة الحَيْفُ، وتقسّمهم الجلاء والسيف، فأفقّرت من بجاية بسائطها، وقلّت مادّتها وغلّت أسعارها... فبدأت المجاعة تشتدّ والوباء يزيد حتّى عمّ الموتان... وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء⁽⁴⁹⁾، وفي منتصف القرن (7 هـ/13 م) أصاب بجاية جفافٌ عظيم قلّت فيه المياه وجفّ أمسيون ووصل الرزق إلى أربعة دراهم⁽⁵⁰⁾.

أمّا تلمسان ففي سنة (688 هـ/1289 م) حلّت بها زمالة الزّمان، وأخلّت بها حوادث الحدثان على ما ذكرت المصادر ممّا أصابها، ثمّ أنّه بعد عشر سنوات من هذه المجاعة أضرّ تلمسان الحصار الذي دام تسع سنوات عليها (698-707 هـ/1300-1308 م)، فشهدت أسعارها الغلاء حتّى هلك الناس بالجوع⁽⁵¹⁾، وعانت قسنطينة هي الأخرى من حصار بني مرين (750 هـ/1349 م)، ممّا أحدث غلاءً شديداً أصاب المغرب الأوسط ككل، واشتملت سنه (776 هـ/1374 م) على مجاعة شديدة، كان سبب حدوثها عوامل طبيعيّة تمثّلت في هبوب رياح شرقيّة أهلكت الزرع والضرع⁽⁵²⁾.

وتحيلنا الباحثة "مزدور سمية" إلى أكثر من عشر مجاعات حدثت في القرن (9 هـ/15 م) منها، ما حدث في تلمسان، ومنها ما ذكرته على أنّه في المغرب ككل، مستعينةً بكتب النوازل وما حوته من مسائل⁽⁵³⁾، وهذه المجاعات التي حلت بالمغرب الإسلامي ككل بالإضافة إلى الأندلس وقد يكون المغرب الأوسط ضمنها؛ ومن ذلك ما ذكره المؤرّخ ابن عذاري المراكشي، أنّه في الفترة (614-616 هـ/1218-1220 م) حدثت مجاعة تناهى بها الحال إلى مزيدٍ في الأسعار، وذكر أنّ هذه المجاعة حدثت بالمغرب⁽⁵⁴⁾، وذكر أيضاً أنّه في سنة (632 هـ/1234 م) حدث في المغرب انقطاع المرافق والمواد وارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات⁽⁵⁵⁾، وبعد سنتين من هاته المجاعة ذكر غلاء مُفرطاً حدث بالمغرب انتهى فيه الربع الواحد من الدقيق إلى 37 درهماً⁽⁵⁶⁾.

ب_ نماذج من الأوبئة التي حلّت بالمغرب الأوسط:

لا شك أنّ الوباء كان في عديد المرات يلازم المجاعة، فإذا حدثت هذه الأخيرة ينتج عنها وباء، وقد تعرّضت بلاد المغرب إلى عديد من الأوبئة يصعب تحديد إطارها الجغرافي، حيث يصيب رقعة جغرافية معينة دون سواها أو يصيب بلاد المغرب ككل، ولا شك أنّ مجاعة (588هـ/1193م) التي حدثت ببجاية قد خلفت وباء شديداً حتى عمّ بعده الموتان⁽⁵⁷⁾.

ويذكر المؤرخ السّلاوي وباءً عظيماً قد عمّ المشرق والمغرب فاضطربت الأحوال بالمغرب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى⁽⁵⁸⁾، كما حدثت العديد من الأوبئة في القرن السّابع للهجرة، وذكّرت في المصادر على أنّها في بلاد المغرب بصفة العموم؛ من ذلك الوباء الذي حدث بالمغرب والأندلس (610هـ/1215م)⁽⁵⁹⁾، وفي سنة (630هـ/1232م) كثر ببلاد المغرب الجوع والوباء⁽⁶⁰⁾، وذكر أيضاً أنّه في سنة (635هـ/1237م) اشتدّ الغلاء والوباء بالمغرب حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وكان يُدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس⁽⁶¹⁾.

ويُعدّ طاعون سنوات (746-750هـ/1347-1349م) من أقوى وأخطر ما حلّ بالمغرب، فقد وُصف بالجارف فطوى البساط بما فيه، وقد امتدّ في المغرب الأوسط وخارجه، ذكره المؤرخ السّلاوي بقوله: "وباء منتصف المائة الثامنة أيّام كان السلطان أبو الحسن بتونس، فإنّه كان وباء عظيماً لم يُعْهَد مثله، قد عمّ أقطار الأرض"⁽⁶²⁾، فقد ظهر في آسيا الوسطى، ثمّ اكتسح أوروبا، حتى وصل شمال إفريقيا، ويسمّى بالطاعون الأسود⁽⁶³⁾، وقد عاود هذا الطّاعون في المسيلة من وطن رباح⁽⁶⁴⁾، ومن الأوبئة في القرن (9هـ/15م) وباء في سنة (845هـ/1442م) على ما ذكر⁽⁶⁵⁾، بالإضافة إلى طاعون تلمسان سنة (871هـ/1466م)⁽⁶⁶⁾؛ توفيّ فيه محمّد بن العباس بن محمد بن عيسى العبّادي التلمساني⁽⁶⁷⁾، وفي الثلث الأوّل من القرن (10هـ/16م) شهدت تلمسان ظهور

وباء في أوّل ربيع، من سنة (926هـ/ 1519م) حتّى شهر جمادى مات أربعمائة شخص، واستمرّ هذا الوباء حتّى شعبان⁽⁶⁸⁾.

وظهرت أمراض كثيرة في مجتمع المغرب الأوسط أدّت إلى تدهور الحالة الصحيّة، من ذلك داء العضال وهو مرضٌ مزمن لا علاج له⁽⁶⁹⁾، كما أنّ فساد الأغذية وتلوّث المياه تؤدّي إلى أمراض باطنيّة كمرض الإسهال الشديد⁽⁷⁰⁾، ومرض القَرع يكون عادةً في رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات فيصعبُ الاستشفاء منه، وعانى "السلطان أبو العباس" من المرض، حيث أزمَنَ به وجعُ النقرس حتّى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفّة. ثمّ اشتدّ به آخر عمره وأشرف في سنة ستّ وتسعين وسبعمائة على الهلكة⁽⁷¹⁾، كما كان مرض البهاق والبرص وبعض الأمراض الجلديّة ومرض الكبد الذي يصيب الرّجال والنساء على حدّ سواء وعديد الأمراض الأخرى⁽⁷²⁾، ومرض الجذام الذي تمثّلت أعراضه في الحُمرة المظلمة وكَدَوْرَة بياض العين، واستدارة الحَدَقَة، وتورُّم الأنف ونتاجة رائحة البدن، وتقرح وتورُّم البدن حتّى تسقط بعض الأطراف كتساقط الشعر، وله رائحة نتنّة يسقَم منها من أطال مجالسة المصاب بهذا⁽⁷³⁾.

ثالثاً: دورُ الأطباء والأولياء في محاربة المجاعة والوباء:

أثّرت الجوائح المختلفة التي مسّت بلاد المغرب الأوسط في جميع جوانب الحياة، ممّا أدّى بمختلف شرائح المجتمع إلى السعي لتجاوزها، ولا شكّ أن السلطة كانت حاضرة للتخفيف أو القضاء عليها؛ يذكر المؤرّخ السّلاوي بأنّه في (711هـ/ 1312م) كان القحط في المغرب، فاستسقى النّاس وخرج السلطان، واستعان بالصّلحاء والفقهاء والقراء لدعاء الله عزّ وجلّ-، وحتّى أنّه وضع وأعطى الصدقات ووزّع الأموال⁽⁷⁴⁾، لكن على ما يبدو أنّ الدور الذي لعبه الأطباء وكذا الأولياء والصّلحاء جديرٌ بالدراسة، ومن خلال هذا فنحن بصدد التطرّق إلى طرق العلاج المستعملة في ذلك الوقت لكبح الجوائح.

1_ دَوْرُ الْأَطْبَاءِ:

عُرف بالمغرب الأوسط عديد الأطباء المشهورين، مَن تَمَيَّزُوا وكان لهم الفضل، ومن ذلك الطبيب ابن أندراس (أبو القاسم محمد بن أحمد ابن محمد الأموي (674هـ / 1275م) الذي قدم إلى بجاية وكان متولياً لطبّ الولاية بها هو وبعض خواص الأطباء⁽⁷⁵⁾، وكذلك محمد بن أبي القاسم الشاطبي التلمساني، الطبيب الخاص للسلطان "أبي تاشفين الأول"⁽⁷⁶⁾، وأيضاً الطبيب أبو يعقوب بن أنداس، كان طبيباً ماهراً، جراحاً، اشتهر بقسنطينة سنة (711هـ / 1311م)⁽⁷⁷⁾، ويذكر الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة، مؤرخ الأطباء أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن حامد البجائي، المعروف بـ"ابن النباش"، على أنه كان مُعْتَن بصناعة الطبّ، مواظباً لعلاج المرضى، له معرفة جيّدة بالعلم الطبيعي، وله أيضاً نظرٌ ومشاركة في سائر العلوم الحِكْمِيَّة⁽⁷⁸⁾، أبو عبد الله محمد، ابن أبي جمعة التاليسي التلمساني؛ أقام بتلمسان، كان طبيباً حاذقاً، تَمَيَّز في الجراحة، وكان طبيب البلاط الزباني⁽⁷⁹⁾، ويصعب علينا حصر كلّ أطباء المغرب الأوسط في هذا البحث، نظراً لمحدوديته إلّا أنّه يمكن العودة إلى بعض المراجع التي اجتهدت في إحصاء ما أمكن منهم⁽⁸⁰⁾.

وقد عُرف عن السلاطين تشجيعهم للحركة العلميّة والاهتمام الشديد بالعلماء والفقهاء، وتقريبهم إليهم، وتقليدهم مناصب عليا في الدولة، كذلك أنفقوا أموالاً من أجل استقطاب العلماء من مختلف البلدان، ومن العلماء الذين كانوا في البلاط الزباني، الأطباء لأجل مداواة السلاطين، فعلى سبيل المثال، السلطان أبو حمو موسى الثاني (760هـ - 791هـ / 1358م - 1388م)، يوصي ابنه بأن يتخذ لنفسه طبيباً، يكون حاذقاً وعاقلاً وناصحاً، وجاء في قوله: "يائني. اختر لنفسك طبيباً ماهراً عاقلاً، أريئاً فاضلاً، ثقةً صحباً ناصحاً، ومع هذه الصفات لا تُمكنه من نفسك، حتّى لا يكون أعلم

منك بنفسك، فإنّ اتخاذ الطبيب فيه قوّة للقلب وراحة للنفس، وهو وإن كان له فيه حكمة، أوضح تقليل⁽⁸¹⁾.

وتعدّدت اختصاصات هؤلاء الأطباء في ميدان العلوم الطبيّة؛ فمنهم عالمون بالطبّ، مدرّسون له ومعالجون، ومنهم من اختصّ في ميدان الجراحة والتشريح، وهناك من اختصّ بطبّ النساء والتوليد، على غرار الطبيب أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي، المعروف بـ"ابن أندراس"، فضلاً عن الصيدلة والعطارة وعلم النبات والتي كانت جزء لا يتجزأ من اهتمامات الأطباء⁽⁸²⁾، ومع هذا لا نجد ممارسة واقعيّة للطبّ في المغرب الأوسط، بالمعنى الذي وصلت إليه أقاليم أخرى في المشرق الإسلامي والأندلس، حيث يذكر المؤرّخ العُبريني واصفاً مهنة الطبّ في القرن (9 هـ/15 م): "وهذه الصناعة هي أشدّ الصنائع ضياعاً في بلاده لأنّه يتعرّضها الغث والسمين، ولا يقع بينهما التميّز إلّا عند القليل من الناس"⁽⁸³⁾.

ونفس القول ذكره المؤرّخ العقباني، عن حالة الطب في القرن التاسع، منبّها على ضرورة معاقبة المدّعين لمعرفة الطب، وداعياً للتعاون بين الأطباء فيما بينهم⁽⁸⁴⁾، وفي القرن (10 هـ/16 م) نجد أنّ المؤرّخ الونشريسي (ت 914 هـ/ 1508 م) يقول: "تصدّر الجهال للفتوى والطبّ والإلقاء، ممّا أدّى إلى كثرة المصائب"⁽⁸⁵⁾، كما ينعكس ذلك على تأليفهم في هذا المجال، حيث أنّ إنتاجهم العلمي في مجال الطبّ مقارنةً بما أُلّف في العلوم الأخرى ضعيف جدّاً⁽⁸⁶⁾.

لكنّ هذا لم يمنع أن يكون للأطباء دوراً واضحاً في التخفيف من أثر المجاعات ومعالجة الأمراض، وأوّل ما سعى إليه الأطباء هو تعميم ثقافة الوقاية، تطبيقاً لما دعا إليه الدين الإسلامي الحنيف، وسنبسط مثلاً عن ذلك فمثلاً، دعى الإسلام إلى النظافة البدنيّة، في قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ"⁽⁸⁷⁾، وعن اختيار

الطعام الجيّد وعدم الإسراف قال تعالى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (88) وتحريمه لما هو ضارّ بالجسم في قوله تعالى: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَحَمَّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ" (89)، ولا يمكن حصر أوامر ونواهي الإسلام في حفظ الصّحة، ومن الأحاديث النبويّة قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (الطَّاعُونَ رَجَسٌ، أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بَارِضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ) (90).

وهذا ما سعى الأطباء على تحقيقه؛ كي لا تنتشر العدوى، فاتخذ أطباء المغرب الأوسط على غرار أطباء الغرب الإسلامي من الطبّ الوقائي قاعدةً لحفظ صّحة الناس قبل وقوع المرض، وحثّهم على النظافة والمحافظة على صّحة الهواء من التلوّث، وتقديم النّصيحة باتّباع نظام غذائي يلائم كلّ فصلٍ من فصول السنة، واعتبروا أنّ فصل الربيع في نظر هؤلاء الأطباء هو الفصل الملائم المداواة الناس بالفصد، وتوجيههم لاستفراغ البدن باستخدام بعض المستهلات أهمّها، الصبر الطيّب، بعد أن يُضاف إليه بعض المركّبات، ويكون ذلك مرّةً في الشهر أو مرّتين، أما فصل الصيف وهو فصلٌ تكثّر فيه الأمراض أيضاً، فقد رأى الأطباء ضرورة اجتناب الأغذية السريعة التحوّل، فنصحوا بعدم تناول الألبان إلّا لئّن الماعز والبقر لصلاحيتهما في كلّ زمان (91).

ومن الأمور العلاجيّة؛ فيذكر الباحث المؤرّخ "عبد العزيز فيلاي"؛ أنّ العلاج كان يستند أساساً على الأدوية النباتيّة واللقاح والفصد، وبعمليّة الإسهال وتطهير الأمعاء والاحتجام. ومن الأدوية التي كان المرضى يستعملونها، وتتمثّل في الأنواع المختلفة من الأشربة والغرغار، والأدهان، وحبّ الفلفل، والبتوع اللبد، وهي عبارة عن عروق لنبات الأنيسون والسكر، يُخلط بالماء، ثمّ تُقدم شراباً للعلاج. والعشاري، وحبّ الزنم، وهو دواء يصلح للأمراض التناسليّة والجنسيّة، وحبّ العروس وهو، شرابٌ يعالج الصداع ووجع وعصير العناب والرمّان (92).

وفي أزمنة الوباء ينصح الأطباء ببعض الأشربة المفيدة مثل، شراب الطين الأرميني⁽⁹³⁾، وشراب البنفسج، والشراب الذي يتكون من الخلّ والعسل والشراب الحصرمي، والإكثار من أكل الكزبرة خضراء أو يابسة والحصرم (العنب الأخضر واليابس) والليمون الدقيق وحامض الأترج وقشرها وحبيها، لأنّ كلّ ذلك ينفع من مضرة المياه المتلوثة، ومن بين التدابير الإصلاحية أيضاً، ما نصح به الأطباء مرضى الطاعون والأمراض الوبائية الأخرى على العموم بتجنب الرياضة والحمام وكلّ ما يُجهد بدن المريض، لأنّ عليهم السكون والهدوء حتّى لا تهيج الأخلط، فأبدان هؤلاء المرضى تحتوي على فضلات رديئة فتثيرها الرياضة والحمام وتخلطها بالكيמוש الجيّد⁽⁹⁴⁾، ويكون ذلك خطراً عظيماً على جسم المريض، وقد كان بعض الأطباء يعرفون من به رائحة وباء بتقنيات بسيطة؛ كأنّ يضعوا بيضة أو بيضتين قرب مكان نوم الشخص المشكوك فيه مدّة 24 ساعة، فإذا فسدت فإنّهم يجزمون بأنّ هذا الشخص مريض بالوباء⁽⁹⁵⁾.

ومع ذلك فإنّ الجهود الطبية في محاربة الأوبئة والأمراض تبقى ضئيلة، استناداً إلى نصّ المؤرّخ الوزّان، الذي يميلنا إلى عدم الجدّة في التعامل مع الأوبئة، فيشير إلى مرض الطّاعون الذي كان "يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنّه لا يهتمّ به أحد، ولا يستعمل أيّ دواء، باستثناء التمسّح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون"، وتذكر الباحثة "مزدور" معلّقة عن هذا: "مما يقودنا إلى القول أنّ جهود هؤلاء الأطباء في ميدان علم الأوبئة كانت ضئيلة، ولم تحقق الهدف المنشود، وظلّ هذا المجال يكتسيه الكثير من الغموض، ربّما لقلّة درايتهم بمثل هذه الأمراض، وربّما لاقتناعهم من جهة أخرى بأنّها أمراض ليست كسائر الأمراض قد تكون مجهولة الأسباب، ولذلك وقف الطب في تلك الفترة عاجزاً أمام مداواتها، خصوصاً إذا اقتنعوا بفكرة روحانيّة أسبابها، وبفكرة إحالة الناس للمداواة بالطب الشرعي، والشعبي عندئذ ينحصر دورهم لصالح الآخر هو الراقي أو الصالح التقّي المداواة مثل هذه الأمراض المستعصية⁽⁹⁶⁾.

2- دور الأولياء:

شهد المغرب الأوسط في الفترة الوسيطية مجاعات كثيرة كما سبق وذكرنا، مع انتشار العديد من الأوبئة والأمراض، منها ما كان سببها الأوساخ المنتشرة في بيئة المجتمع، ومنها ما هي مزمنة، وقد يكون منها ما هو بسبب السحر والشعوذة والعين، ونجد أن كتب التراجم والمناقب صوّرت دور الأولياء في هذا المجال، إذ أنه على ما يبدو أنه لما يئس الناس من دواء الأطباء لجأوا إلى التوسّل بالأولياء - الأمر الذي كان له نتائج جيّدة وكان له طابع ديني ودون مقابل- وفي عديد المرات نجد أنّ الوليّ يقدّم المساعدة الماديّة، وقد أخذ علاج الأولياء عدّة طرق.

ذكر المؤرّخ الإمام محمد بن مرزوق (ت 781 هـ / 1379 م) عن نفسه، أنّه كان كثير الأمراض في صغره، وأنّه إذا اشتدّ عليه المرض قصد والده فيتقلّ عليه ويرقيه ويدعو له، ومن ذلك أنّه تورّمت يده في موضع بخطأ من الفاصد، فأشار بعض الأطباء بالطبّ، وبعضهم بالبطّ، واتفقوا أنّ اليد تعتلّ، فدخل عليه والده محمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق (ت 681 هـ / 1282 م) فبصق له على الورم، وقام وإذا بالصديد يسيل كالميزاب، وكان وقت الظهر فما جاء العشيّ إلّا وهو يأكل ويكتب بها⁽⁹⁷⁾، فتعكس هذه الرواية ذهنية علاجية تقوم على الفعل الرمزي ذي البعد الديني، حيث يُنظر إلى الشفاء بوصفه نتيجة لانتقال البركة لا لنجاعة الإجراء الطبي. فخروج الصديد يمثّل تطهيراً للجسد من الفساد، ويؤكد التحديد الزمني السريع بين الظهر والعشيّ الطابع الإعجازي للعلاج في المخيال الاجتماعي. كما يتجلّى اكتمال الشفاء في استعادة الوظيفة اليومية، من خلال العودة إلى الأكل والكتابة، بما يدل على أن العافية تُقاس بعودة المريض إلى أداء أدواره الحيوية والاجتماعية، وفيمثال آخر ذُكر أنّ الأمير "عبد الرحمن بن ثومرت" خرجت له آكلة في خدّه وطال أمرها وآيس من البرء منها فذهب إلى الشيخ الحسن أبركان (ت 807 هـ / 1404 م) فبصق له في موضع الآكلة، ولم يزد عن ذلك شيئاً ولم

يقرأ قبل البصاق، فدخلها البرء على الفور ولم يبق لها أثر⁽⁹⁸⁾، وكان منهم أيضًا تبرك الناس بدعائهم، وكانوا يرون أنّ دعاء الأولياء والصلحاء مستجاب ومقبول عند الله، وذلك لصلاحهم وتقواهم، وتحدثت كتب المناقب والتراجم عن العلاج بهذه الطريقة الروحية، حيث يذكر أنّ محمد بن مرزوق تعرّض للسعال وتناول الأدوية فلم تنفع معه، فلما دعا له والده أصبح برئًا والحمد لله⁽⁹⁹⁾.

وعلى ما يبدو أنّ النصّ المناقبى روج لظاهرة الاعتقاد في الأولياء أحياء وأموات، والتوسّل عند قبورهم وزيارتهم قصد نيل البركة وقضاء المطلوب وتفريج الكرب ونيل المبتغى، حيث أفى قاسم العقباني بجواز التوسّل بالصوفية، وأقر بظهور العجائب عند قبورهم في قوله: "وما زال هذا يتكرّر في الذين يقتدى بهم فلا ينكرونه ومازالت تظهر العجائب في هذه التوسّلات بهؤلاء السادات"، وهذه الفتوى هي نموذج لفتاوى ومواقف مغربية سمحت بزيارة الصوفية والتوسّل عند قبور الأموات منهم؛ بل إنّ هذا الاعتراف شمل أيضًا صوفيّة العرفان الفلسفي والسنيّ فابن خميس التلمساني (ت 708 هـ/1309 م)، صاحب "منحى الوحدة المطلقة" دعا إلى زيارة قبر أبي مدين شعيب، بالعباد، مبيّنًا ما يحصل للزائر من مغفرة للذنوب وجلاء للكروب⁽¹⁰⁰⁾.

وتأصّلت ظاهرة الاعتقاد لدى المجتمع فيهم، فقد كان عرش "أزفون بزواوة" يستشيرون منصور الجنادي في كلّ ما يخصّ عرشهم ولا يخالفونه فيما يُبدي من رأي⁽¹⁰¹⁾، وكان حجاج وتجار تلمسان يطلبون بركة شيوخهم؛ مثل دعاء أبي العباس أحمد بن مرزوق للمسافرين الحجاج بالعودة سالمين، واستشارة التجار لمحمد بن يوسف السنوسي في الخروج إلى التجارة فيدعو لهم بالتوفيق، وفي أزمت الجفاف كانوا يطلبون منه الدعاء؛ كي ينزل المطر⁽¹⁰²⁾، فيجيبهم بقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ"⁽¹⁰³⁾.

كما فتح الأولياء بيوتهم ومخازنهم، وتصدّقوا بالطعام واللباس للفقراء ممّا أدّخروه في مطاميرهم⁽¹⁰⁴⁾، وواظبوا في توزيع ما كان يصلهم من صدقات ونذورٍ من كلّ مكان، وشاركهم في ذلك الأغنياء لتصبح تلمسان مقصد الفقراء، متّخذين نفس خطّ اتجاه النذور والصدقات فأصبحوا كملاذٍ قائمٍ، ورهانٍ لا غنى عنه لأصناف الفقراء والمعوزين⁽¹⁰⁵⁾ وقيل، أنّ أبو العباس أحمد بن مرزوق كان يقدم يسير الطعام لكلّ من قصده، ورغم ذلك كان كافياً، ومن ذلك أيضاً، أنّ الصّوفي يحيى بن عبد الله محمد بن عبد العزيز عرض على السّلطان الزياني في أحد المجاعات الشديدة في القرن (9 هـ/15 م) مساعدته بالقمح فقد كان يمتلك هرياً من القمح لا ينضب، دلالةً على أنّ بركة الولي وكرامته هي التي جعلت الهريّ يغطي احتياجات السلطان ورعيّته، وهنا تنجح الكرامة في تصوير الصوفي بديلاً عن السلطة العاجزة فيزداد بذلك تشبّث الناس به⁽¹⁰⁶⁾.

وما يمكن قوله في الأخير أنّ ذلك الايمان المطلق بقوة الولي قد غلب عليه الطابع الخيالي أكثر من الجانب الفعلي؛ والحلول التي بنّتها هؤلاء الأولياء كانت مؤقتة، واقتصرت في كثيرٍ من الأحيان على نطاق الفرد أكثر من الجماعة، كما أنّ تشبّث العامة بهؤلاء الأولياء وإيمانهم العميق بهم لم يكن في الغالب نابغاً من منطلق ديني؛ لأنّ التوسّل كان لأغراض دنيويّة تتمثّل في طلب الغيث حتّى يتوفّر الغذاء وطلب الصدقات وتسهيل مشقّة السفر وتفريج الكربات⁽¹⁰⁷⁾.

خاتمة:

عرف سكّان المغرب الأوسط مجاعات وأوبئة كثيرة على مدار القرون الأربعة- مجال الدراسة-؛ من القرن السادس حتّى العاشر مؤدّيةً إلى مشاكل غذائيّة وتدنيّ في المستوى الصحيّ في مدن المغرب الأوسط وبواديّه على حدّ سواء، وتعود أسباب حدوث المجاعات إلى عاملين أساسيين هما:

عامل بشري؛ ارتبط بكثرة الضرائب على الرعيّة، وما نتج عنه من حدوث أزمات اقتصادية، أدّت إلى تراجع النشاط الفلاحي في المغرب الأوسط، وتمخّض عن ذلك انعدام الأمن الغذائي داخل هذا المجتمع، وحدوث غلاء في الأسعار أدّى في نهاية المطاف إلى انتشار المجاعات، وكذلك الاضطراب السياسي المتمثّل في حالة اللااستقرار؛ إذ تعدّ الحروب والحصار والفتن الداخليّة من أهمّ الأسباب البشريّة التي تمخّض عنها حدوث المجاعات والغلاء في الأسعار، فلا غرو فقد تعدّت الآثار الناتجة عن الحروب إلى انحدار ديمغرافي لسكان المغرب الأوسط وخرابٍ عمرانيّ.

عامل طبيعي ناتج أساسًا عن تذبذب المناخ وكثرة الجوائح الطبيعيّة، التي لا يد للإنسان في حدوثها، كالقحط والجراد والفيضانات والثلج والبرد وغيرها؛ فثمّة علاقة تراتبيّة بين المناخ والماء والغذاء، فإذا اختلّ المناخ وحال دون تساقط الأمطار، قلّ الماء فيقلّ الغذاء، فتحدّث بذلك المجاعة، كما أنّ كثرة التساقط التي تؤدّي إلى حدوث الفيضانات أهلكت الزرع والضرع معًا، فإضافة إلى أنّ هذه الجوائح كانت تتسبّب في حدوث مجاعات داخل المغرب الأوسط، فإنّها ألحقت أضرارًا بالمجال الفلاحي والحرجي والعمرانيّ أمّا الأوبئة وإنّ كانت تمثّل في آنٍ واحد سببًا لحدوث المجاعات ونتيجة عنها أيضًا؛ فإنّ الأطباء حصروا جملة مسبباتها في فساد الهواء والمياه والأغذية وعدّة عوامل أيضًا من بينها، انعدام شروط النظافة، وكثرة الحروب.

حاول الأطباء التّخفيف من تداعيات المجاعات والأمراض والأوبئة التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط، وقد تميّزت حالة الطبّ في المغرب الأوسط بشيءٍ من الفتور خاصّةً إذا ما قورنت بالأقاليم الإسلاميّة الأخرى؛ بل ويمكن القول أنّ الجهود المتّخذة لتجاوز ظاهرة الأوبئة من طرف الأطباء باءت بالفشل، خاصّةً في الحدّ من موجات الطّاعون والوباء والقضاء على بعض الأمراض المزمنة.

فكان البديل عن هؤلاء بالنسبة لأفراد المغرب الأوسط الأولياء والصالحين. الَّذِينَ تجلّى دورهم في علاج عديد الأمراض المزمنة والعايات، ممّا جعل السكّان يعتقدون بهم كلّ الاعتقاد حتى بعد مماتهم، فتقدّس الأولياء وقبورهم، أصبحت ذهنية طُبعت في نفوس أفراد هذا المجتمع خلال هاته الفترة، وممّا ساهم في ترسيخ هذا الاعتقاد كتب المناقب حيث راحت تجسّد ذلك الدور البطولي الخارق للعادة في جلب الأمطار وتفريج الكروب وتعجيل الشّفاء.

هذا وقد تعدّدت أساليب الأولياء الاشفائية، فهي تقوم أساساً على مبدأ الكرامة؛ كالرّقّة وما يصاحبها من تفل ودعاء، فضلاً عن تضامن هؤلاء الصّالحاء مع الفئات الفقيرة والمحتاجين من النّاس، لتكون مقدّساتهم من قبور وزوايا مقرّاً رئيسياً تلجأ إليه مثل هذه الفئات في أوقات المجاعة طمعاً في نيل الصدقات من الزّائرين لها، ومن المقيمين عليها من الصّالحاء، مع ما أفرزته هذه الأوقات من مظاهر دينيّة كصلاة الاستسقاء والتوجّه إلى الأولياء ومقدّساتهم من زوايا وقبور، وربّما هذا ما يفسّر غياب دور المساجد في تلك الفترة التي تربط أبوابها بالأحزمة، وتغلق عند حدوث بعض المجاعات وفضلاً عن ذلك، فإنّ حالات الجوع القصوى قد جعلت أفراد مجتمع المغرب الأوسط في حالة نفسية صعبة على حدّ قول الباحثة مزدور سميّة.

¹ مزدور سميّة، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927م/1192-1520م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2008/2009م، ص15.

² ابن منظور (محمد بن مكرم بن عليّ أبو الفضل جمال الدين ت 711هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط3، دار صادر - بيروت، 1414هـ، ج8، ص61.

³ سورة البلد، الآية: 14.

⁴ ابن منظور، نفسه، ج1، ص468. أنظر أيضاً الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ت 817هـ): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2005م، ص97.

⁵ ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص216.

⁶ مزدور سميّة، المرجع السابق، ص15، 16.

⁷ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص684.

- ⁸ ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص431.
- ⁹ مزدور سمية، المرجع السابق، ص17.
- ¹⁰ ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص189.
- ¹¹ تاهرت، مدينة مشهورة من مدن المغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان وتاهرت في سفح جبل يسمى قزول وعلى نحر كبير يأتيها من ناحية الغرب. أنظر، الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مؤسّسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص126.
- ¹² أشير: بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة، من بلاد الزاب بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وإلّا بنى زيري سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحصن منها، وهي بين جبال شامخة محيطة. أنظر، الحميري، المصدر نفسه، ص60.
- ¹³ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، ترجمة: حمادي الساحلي، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص581.
- ¹⁴ محانة: مدينة بإفريقية مدينة قديمة بينها وبين مرامجة مرحلة كبيرة وهي مدينة صغيرة على سور تراب. الحميري، المصدر السابق، ص525.
- ¹⁵ مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)، تحقيق: سعد عبد الحميد زغلول الدار البيضاء، 1985، ص176.
- ¹⁶ ابن خلدون (عبد الرحمن ت 808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: د. سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1401 هـ - 1981 م، ج1، ص76.
- ¹⁷ ابن خلدون، نفس المصدر، ج1، ص376.
- ¹⁸ مزدور سمية، المرجع السابق، ص73.
- ¹⁹ الغبريني (أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس ت714هـ): عنوان الدّارية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979م، ص149؛ أنظر أيضًا: التنبكي (أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري السوداني، أبو العباس ت 1036هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، 2000م، ص320.
- ²⁰ مزدور سمية، المرجع السابق، ص111.
- ²¹ العبدري محمد (ت725هـ): الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، بونة، الجزائر، 2007م، ص27.
- ²² ابن خلدون(بحي): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: الفرديل، الجزائر، مطبعة فونطانة، 1910م، ج1، ص326.
- ²³ الونشريسي (أبو العباس احمد بن يحي ت914هـ): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد حجي، د ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، 1401هـ/ 1981م، ج5، ص100.
- ²⁴ ابن مريم (أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، د ط، المطبعة التعالبيّة، الجزائر، 1908م، ص177.
- ²⁵ ابن مريم: المصدر نفسه، ص40.
- ²⁶ مزدور سمية، المرجع السابق، ص114.
- ²⁷ نفسه.
- ²⁸ نفسه.

- 29 نفسه.
- 30 نفسه.
- 31 حسب إحصائيات منظمة الأغذية والزراعة (الفاو). أنظر، عبد العليم سعد الدسوقي: الجراد الصحراوي، د ط، قسم وقاية النبات، كلية الزراعة، جامعة سوهاج، 2020م، ص10، 11.
- 32 ابن مريم، المصدر السابق، ص15.
- 33 ابن خلدون، العبر، ج7، ص179.
- 34 مزدور سمية، المرجع السابق، ص79.
- 35 ابن خلدون، المصدر السابق، ص184؛ مزدور سمية، المرجع السابق، ص80.
- 36 ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص196.
- 37 محمد فتحة: النوازل الفقهيّة والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ، دط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الدار البيضاء، 1999م، ص379.
- 38 مزدور سمية، المرجع السابق، ص83.
- 39 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص28.
- 40 مزدور سمية، المرجع السابق، ص90.
- 41 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص421.
- 42 نفسه، ج7، ص292، 293؛ أنظر أيضاً، ابن مرزوق التلمساني (أبو عبد الله محمد ت781هـ): المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2008م، ص194؛ علي ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص386.
- مزدور سمية، المرجع السابق، ص90 وما بعدها. 43
- 44 ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص377.
- 45 مزدور سمية، المرجع السابق، ص119.
- 46 البكري، المصدر السابق، ج2، ص718.
- 47 مزدور سمية، المرجع السابق، ص121.
- 48 ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص523.
- 49 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين-، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ/1985م، ص181.
- 50 الغبريني، المصدر السابق، ص149.
- 51 ابن مرزوق، المصدر السابق، ص194.
- 52 مزدور سمية، المرجع السابق، ص129.
- 53 نفسه، ص130.
- 54 ابن عذاري، المصدر السابق، ص266، 267.
- 55 نفسه، ص318، 319.
- 56 نفسه، ص339.
- 57 نفسه، ص181.

- ⁵⁸ أسلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى -الدولة المرينية -تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج3، ص 164.
- ⁵⁹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص272.
- ⁶⁰ نفس المصدر، ص 276.
- ⁶¹ مزدور سمية، المرجع السابق، ص135.
- ⁶² السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص181.
- ⁶³ عبد العزيز فيلالي، بحث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص124.
- ⁶⁴ ابن خلدون، العبر، ج7، ص170.
- ⁶⁵ التميمي، المصدر السابق، ص120، 630.
- ⁶⁶ نفسه، ص547.
- ⁶⁷ من أكابر علماء تلمسان وأكبر أئمة وقته بما، أخذ عن الإمام ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وغيرهما، وعن جماعة كالمازوني وابن زكري والتنسي والكفيف ابن مرزوق والسنوسي والونشريسي وابن سعد والخطيب الحفيد ابن مرزوق وغيرهم، وله تأليف كشرح لامية الأفعال في التصريف وشرح جمل الخنجي "والعروة الوثقى في تنزيه الأنبياء عن فرية الالقاء" في كراريس وغيرها، وفتاوى عدة مذكور بعضها في المازونية والمعار. توفي بالطاعون آخر عام أحد وسبعين ودفن بالعُباد. نفسه، ص547.
- ⁶⁸ مزدور سمية، المرجع السابق، ص137.
- ⁶⁹ نفسه، ص178.
- ⁷⁰ الطاهر بوناني، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، إشراف: عبد العزيز فيلالي، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2008/2009م، ص497.
- ⁷¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص582.
- ⁷² عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص113 وما بعدها.
- ⁷³ مزدور سمية، المرجع السابق، ص139 وما بعدها.
- ⁷⁴ السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص178.
- ⁷⁵ الغبريني، المصدر السابق، ص75، 76.
- ⁷⁶ أبو تاشفين الأول: هو عبد الرحمان الأول أبي حمو موسى الأول، بن أبي سعيد عثمان الأول بن يغمراسن، خامس ملوك الدولة الزيانية بتلمسان، عُرف بحبه للفنون، ولا سيما فنّ المعمار، وهو أكثر الملوك آثارًا وعمرًا. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى عصر النهضة، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص56.
- ⁷⁷ ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، (د. ط)، دار التونسية، تونس، 1968، ص164، 163.
- ⁷⁸ ابن أبي أصيبعة (أبو العباس موفّق الدين ت668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، د ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص78.497
- ⁷⁹ عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص120.
- ⁸⁰ نفسه، ص 119 وما بعدها؛ أنظر أيضًا. مزدور سمية، المرجع السابق، ص 157-163.
- ⁸¹ أبو حمو موسى الزياني التلمساني (ت 791هـ/1388م)، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، دط، تونس، 1862م، ص20.
- ⁸² مزدور سمية، المرجع السابق، ص164.

- ⁸³ الغزيربي، المصدر السابق، ص76.
- ⁸⁴ مزدور سمية، المرجع السابق، ص167.
- ⁸⁵ الطاهر بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ص123.
- ⁸⁶ نفسه، ص169.
- ⁸⁷ المائدة، الآية: 6.
- ⁸⁸ الأعراف، الآية: 31.
- ⁸⁹ النحل، الآية: ص115.
- ⁹⁰ البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي): صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، ط5، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، 1993م، الحديث رقم: 3286، ج3، ص1281.
- ⁹¹ مزدور سمية، المرجع السابق، ص170، 171.
- ⁹² عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص117.
- ⁹³ وينفع في ضيق النفس وفي أزمات الربو وينفع نفعا عظيما من في رثته قرحة، لأنه يجفف الجرح الذي في رثتهم حتى لا يسعلوا بعد ذلك إلا أن يقع في تدبيرهم خطأ لأنه قوي التجفيف وقروح الرئة تنفع بالأدوية المجففة جدا حتى أن أصحابها يظنون أنهم قد برؤا برءا تاما. أنظر، الرازي (أبو بكر، محمد بن زكريا ت 313هـ)، الحاوي في الطب، تح: هيثم خليفة طعيمة، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2002م، ج2، ص57.
- ⁹⁴ الرازي، المصدر نفسه، ج7، ص391.
- ⁹⁵ مزدور سمية، المرجع السابق، ص173.
- ⁹⁶ مزدور سمية، المرجع السابق، ص173.
- ⁹⁷ ابن مرزوق، المصدر السابق، ص231.
- ⁹⁸ مزدور سمية، المرجع السابق، ص177.
- ⁹⁹ ابن مرزوق، المصدر السابق، ص234.
- ¹⁰⁰ طاهر بونابي، المرجع السابق، ص671.
- ¹⁰¹ نفسه، ص672.
- ¹⁰² الطاهر بونابي، المرجع نفسه، ص672.
- ¹⁰³ سورة الشورى، الآية: 28.
- ¹⁰⁴ ابن مريم، المصدر السابق، ص307.
- ¹⁰⁵ الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص658.
- ¹⁰⁶ نفسه، ص680.
- ¹⁰⁷ مزدور سمية، المرجع السابق، ص154، 155.